مدخل إلى الآداب العالمية- سنة ثانية ليسانس -.....د. حميدة سليوة

المحاضرة رقم"2:

الآداب الشرقية القديمة

الأدب في حضارة بلاد الرافدين

تعد آداب بلاد ما بين الرافدين من أعرق الآداب الإنسانية، ويحدد المؤرخون فترة ظهورها في حدود الألف الرابع قبل الميلاد، حيث نشأت هناك أولى المدن والحضارات، وكانت بلادهم أسبق إلى ابتكار الكتابة والتدوين، لهذا بقيت آثارهم الأدبية أقرب إلى الأصل الأول، وكذلك الشأن بالنسبة بقية مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية فيما يتعلق بالآداب الفنون والعمران والاقتصاد.

ويقر المؤرخون بأن آداب الشرقية تمثل أولى محاولات الإنسان التعبير عن الحياة عن طريق الفن، فآداب العراق القديم أحسن من يمثل هذه الآداب فهي تسبق الآداب المصرية القديمة والعبرانية بحوالي 500سنة:« **معظم الألواح بالآداب السومرية والبابلية التي جاءت إلينا إلى حال التاريخ لا يتجاوز عهد تدوينها الألف الثاني ق.م، فإن هذه الآداب المدونة قدم إبداعها ونضجها في منتصف الألف الثالث ق.م، فإذا قارنا قدم الآداب بأقدم الآداب البشرية الأخرى وجدنا أنها تسبق في زمن تدوينها جميع ما أنتجه الفكر البشري**»[1]، وهي على غرار الآداب العالمية الشهيرة عامة تتميز بالرقي في معانيها وروعة أسلوبها وأخيلتها، ومثال ذلك الشعر السومري الذي يصنف كأقدم إنتاج أدبي على وجه الأرض، وكان:« **يخضع لفن خاص في النظم والتأليف، فهو يتألف من أبيات قوام كل بيت من مصراعين"صدر والعجز"** وكان موزونا، ولكنه غير مقفى، وقد عرف عن الشعر البابلي كما في ملحمة جلجامش»[2]، وتنقسم القصيدة إلى وحدات كل وحدة فيها بيتين أي ما يسمى "دوبيت"، ومعنى البيت الثاني مغايرا أو مكملا أو مشابها للبيت الأول، وقد تتشكل القصيدة من رباعيات.

1-أشكال الأدب القديم في بلاد الرافدين:

1-1-الأساطير: كمثل أساطير العالم الأسفل كما قصة نزول عشتار إلى عالم الموتى، وكذلك قصة نزول أنكيدو صاحب جلجامش، أسطورة الخليقة وأصل الوجود والكون والآلهة والعمران.

1-2-التراتيل والأغاني الدينية والصلوات الخاصة بالآلهة المختلفة في الأعياد الدينية.

1-3-الأشعار الخاصة بتخليد الملوك والأبطال والأخبار التاريخية، كقصة جلجامش وقصة"أيتانا" الراعي وقصة "أدابا".

وتتميز آداب بلاد الرافدين كغالبية الآداب القديمة «بكثرة التكرار والإعادة»[1]، واستباق الحوادث كما في ملحمة جلجامش، وكثرة النسخ الشهيرة في أزمنة مختلفة.

2-أدب الملاحم:

أ- هي الملحمة؟

يعرفها محمد شوقي أمين:« **نوع من الشعر، يصف ما يجري على الدول والأمم من أحداث وشجون ووقائع**»[2]، وهو تعريف مختصر يقصر الملحمة على وصف الأحداث التاريخية الخاصة بشعب ما، لهذا شاعت في العصر الحديث صفة **ملحمي** على كل الأعمال الأدبية الكبرى ذات العلاقة بالتاريخ الوطني، فأطلق على رواية تولستوي"الحرب والسلام" الرواية الملحمية، وكذلك القصائد الملحمية الحديثة وهكذا.

أعطى الغرب اهتماما وعناية كبيرة للملاحم القديمة، فقد أقبلوا منذ عصر النهضة على ترجمتها من لغاتها الأصلية إلى اللغات الأوروبية الحديثة، وعكفوا على جمعها وتحديد خصائصها ودراستها، وهي في المعاجم:«**سرد مطول، في أبيات شعرية من نفس النوع، للمآثر الفردية والمآثر الجماعية، التي تستحق الذكر بشدة، لمجتمع بشري ينتصر على سلسلة المحن والمخاطر المميتة، وتشارك في المواجهة قوى بشرية، إلهية، كونية، مؤيدة للبطل(الأبطال)**»[3]، وهكذا يتبين أن الملحمة هي واحدة من الأجناس الشعرية فهي تنظم شعرا، لرواية قصة طويلة-بطولية- عن بطولات وانتصارات يحققها فرد؛ وهو البطل أو الجماعة أي الأمة، أي أنها تاريخ فردي كما هي ملحمة جلجامش أو الأوديسا، أو جماعي فقد تسرد الملحمة أحداث تاريخية خاصة بشعب من الشعوب، كما هي حرب طروادة بالنسبة إلى اليونان، والمهابهاراتا التي تسرد مجموعة من الحروب التي خاضتها شعوب الهندوس القديمة، من أهم ما يميزها هو تمازج القوى البشرية بالطبيعية، وهذه الأخيرة المجسدة في الآلهة المتعددة التي كان الإنسان يؤمن بها، لهذا فهي مليئة بالخوارق والعجائب.

ورغم الغموض الذي يحوم حول هذا المفهوم لكن تبقى الملحمة:« **القصيدة القصصية الطويلة التي تسجل الأعمال البطولية الخارقة التي صدرت عن بعض الأبطال الحقيقيين أو الأسطوريين والتي تمتزج فيها أفعال البشر وتصرفات بعض الكائنات الاعجازية الخفية كالآلهة والمردة والشياطين والوحوش المخيفة المهولة بل أيضا بعض القوى الكونية والظواهر الطبيعية التي تقوم بدور مساعد،.....كثيرا ما يكون لها مغزى قومي واضح بينما تستخدم كلمة (ملحمي)للإشارة إلى كل ما هو بطولي، يتجاوز قدرات البشر، ويجمع بين الروعة والعظمة والجلال**»[4]، فالملحمة مجموعة أحداث عظيمة متسلسلة، يقوم بها أبطال هم شخصيات هذه القصة الملحمية من بشر وآلهة وأنصاف آلهة،

عادة ما ينشب الصراع بين الآلهة والبشر أو بين جماعات بشرية بمساعدة الآلهة، لهذا وبسبب تدخل الآلهة توصف أحداثها بالإعجازية والخارقة، من أهدافها تخليد بطل ما قد يكون زعيم أمة ما مثلا هو الحال في ملحمة جلجامش والرامايانا، أو التغني بأمجاد شعب ما كما هي الانياذة.

ظهرت الملاحم منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة في ما يسمى بالعصور الكلاسيكية، وعبرت عن ديانة وثقافة ومجتمع العصر الذي ظهرت فيه، ونظمت شعرا على الوزن السداسي وهو وزن فخم تنظم به الملاحم وروائع المآسي، و:« **يطلق على الملاحم اسم الملاحم الأولية أو ملاحم الدرجة الأولىPrimary لأنها ملاحم شفوية(بدائية). ويدخل في نطاق هذه الفئة الإلياذة والأوديسا وملحمة جلجامش وبيرولف وما إليها، وإما أن يكون التحديد أكثر اتساعا ورحابة بحيث يدخل فيه كل أشكال الكتابة الملحمية، أي أن يضم ايضا الملاحم (المكتوبة) أو المدونة التي يطلق عليها أسم ملاحم الدرجة الثانيةsecondary**»[1]، فالملاحم نوعان: ملاحم بدائية وقديمة وشفوية كالإلياذة وجلجامش وهي عادة مجهولة المؤلف تناقلها الناس بالسماع، وملاحم مكتوبة أي مدونة ومعلومة المؤلف كالانياذة لفرجيل، والفردوس المفقود لملتون والكوميديا الإلهية. تألف الملحمة لتنشد في الأماكن العامة من طرف الشاعر ، حيث يحاكي المنشد كل الأدوار رفقة الموسيقى التي ترافق عملية الإنشاد.

تتميز الملحمة عامة بوحدة موضوعها: فهو أما أن يكون: سرد حروب وعارك دامية فهي تأريخ لأحداث تاريخية كما هي قصة حرب طروادة في ملحمة هوميروس "الإلياذة"، أو مغامرات بطل تاريخي أو أسطوري كما في الأوديسا وجلجامش أو الرامايانا، أو أنها تحكي قصة أمة ما وكيف جاءت إلى الوجود وتتغنى بأمجادها كما في الإلياذة.

ب-بناء الملحمة: تتكون كأي عمل سردي من؛ -الحدث: أهم ما في الملحمة، لأنها تنبني على حدث مهم تتفرع منه أحداث متتابعة و الخوارق والمعجزات، فالحدث الملحمي في الإلياذة هو غضب أخيلليوس لمقتل صديقة باتروكلوس ورغبته في الانتقام، والحدث في الاوديسا هو رحلة أوديسيوس من أجل استرداد زوجته هليني.

-العرض: هو تقديم الموضوع وطريقة جذب المستمع عن طريق الوصف والاستطراد والمبالغة .

-العقدة: هي المكان الذي تتكافئ فيه القوى بين المتجابهين في الملحمة.

-الحل: يكشف فيه الشاعر الملحمي عن الحل وبه تنتهي الملحمة.

-الشخصيات: الابطال ومهمتهم دفع الحدث والقيام به.

-المكان: في الملحمة فضاء واسع بين بحار هي مسرح الاشتباك وغابات لمغامرات البطل وقصور وحدائق للملوك والربات، لهذا يكثر فيها الوصف.

ج-خصائص الملحمة:

1-تتميز الملحمة كجنس أدبي بأنها سرد شعري ولا تنظم إلا في الوزن السداسي.

2-التنوع الهائل والتشعب في الموضوعات: حيث« **نجد الأحداث والوقائع الحقيقية جنبا إلى جنب مع الأسطورة والحكاية الخرافية**»[2]، وهي تجمع القصص ذات الطابع الديني مع قصص التاريخ القومي مع مغامرات

الأبطال، ثم أنها تحتوي على مسحة من الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والتأملات، وعادات وتقاليد الشعوب دون أن يخل كل هذا بالوحدة الموضوعية للملحمة.

3- تتميز كذلك «**بالاندفاع والتدفق الهائل في سرد القصة بحيث يسيطر ذلك التدفق على كل ما عداه**»[1]، لهذا ليس مستبعدا أن تكون الملحمة طرأت عليها تغييرات وتعديلات نظرا للأساليب المتزاحمة فيها من كثرة التشبيهات والمحسنات اللفظية والأوصاف والنعوت خصوصا في الملحمة الشفوية.

4- المزج بين «**القوى البشرية والقوى الاعجازية أو الفائقة للطبيعة**»[2]، فالبطل الملحمي في العادة هو مزيج من تزاوج بين الآلهة والبشر، كما هو أخيلليوس وجلجامش، لهذا تتميز أفعاله بأنها عظيمة واعجازية تفوق قدرة البشر، بالإضافة إلى مشاركة الآلهة في الحدث، كما في الإلياذة التي تروي الحرب الطروادية؛ حيث انقسمت الربات بين مؤيدة لليونان كالرب أثينا ومؤيدة لطروادة وباريس كأفروديتي، وكل هذا يلعب دورا في إعطاء الطابع العجائبي للقصة.

5-تعكس الملحمة القيم والمبادئ والمثل العليا، والهواجس المؤرقة للإنسان، كمشكلة الموت والحياة في جلجامش مثلا، ومشكلة حرية الإنسان والقدر المحتوم في الإلياذة، وتجد فيها تمجيدا للأخلاق من شجاعة وتضحية وإباء ومحبة الخير.

6-تعد الملحمة وسيلة لمعرفة تقاليد المجتمعات البدائية وعاداتها ونمط حياتها، وهذا يظهر في العديد منها الإلياذة التي صورت تقاليد الحروب، والرامايانا التي قدمت صورت عن العلاقات الانسانية نظمها في الهند القديمة.

3-ملحمة جلجامش:

"هو الذي رأى كل شيء"

هي أقدم نموذج ملحمي في التاريخ:« **قصيدة شعرية طويلة مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية على اثني عشر رقيما من الطين**[3]»، وتعود أحداثها إلى القرن 6 ق.م، كتبت بأسلوب شعري موزع على ألواح عددها 12 يحتوى كل لوح على حدث أساسي من أحداث الملحمة، وكل لوح مقسم إلى ستة أعمدة، تنقسم الملحمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أول حول بطولات جلجامش ورفيقة أنكيدو، وثان حول قصة الطوفان العظيم وحصول رجل الطوفان على الخلود، ثالث يتعلق بمسألة الموت والعالم السفلي، وهي كأي الملاحم تبدأ بديباجة"مقدمة" تعرف البطل وتتغنى بأمجاده وحكمته، ثم التنويه بموضوع القصة، وتنتهي بقطعة شبيهة بالديباجة، وقد يكون هذا دليلا على كمالها.

وكلمة جلجامش Gilgamosفي اللغة الآكادية معناها **"المحارب الذي في المقدمة أو الرجل الذي سيكون نواة لشجرة جديدة"**[4]، ويذكر أنه واحد من الأبطال التاريخيين في حضارة بلاد الرافدين نسبت إليه الكثير من الانجازات

والبطولات:« **اسمه ورد في إثبات الملوك السومريين من سلالة الوركاء الأولى، وهي السلالة الثانية التي حكمت بعد الطوفان.....وتروي القصص أن أمه كانت الآلهة ننسون، زوجة الإله لوكال بندا**»[1]، ويحكى أنه كان ملكا وقاضيا في العالم الأسفل، وأحد حكام دول المدن السومرية مطلع العصر المسمى عصر فجر السلالات(3000-2400 ق.م).

ويقدم الرقيم الأول تفاصيل وافية عن هذا البطل سليل الوركاء، وبأن الآلهة حبته القوة والحكمة والسلطة، حتى أنه طغى فكان يتمتع بحرية مطلقة، اغتصب من خلال النساء وجند الرجال وعذبهم العذاب الشديد، حتى ضاقوا درعا من تجبره، فتضرعوا للآلهة أن تخلق رجلا يكون نظير جلجامش في القوة والبأس فيصبح ندا له، واستجابت الآلهة بأن خلقت أنكيدو الذي عاش في البراري مع الظباء والحيوانات، يأكل من الأعشاب ويخرب ما يصنعه الصيادون من شباك. وكان أن شاهده أحد الصيادين وقص الواقعة على جلجامش طالبا منه إرسال فتاة من معبد عشتار، لاغواء هذا المخلوق فيستريح الصيادون من تخريبه عليهم، فأغوت "شمخاتو" أنكيدو وهجر البراري والحيوانات عدة أيام، وعندما ندم وحاول العودة تفاجئ بالحيوانات تهرب منه، فقد استأنس أنكيدو المتوحش ونسي حياة البداوة، لهذا عرضت عليه الفتاة الذهاب إلى مدينة الوركاء، والعيش وسط البشر وهو لا يعرف شيئا عن حياة البشر، فقد تفاجئ بنظراتهم المتعجبة من منظره وضخامته، وكان لقاؤه بجلجامش واشتباكه معه أمام معبد عشتار ، وتحول المتجابهان فيما بعد إلى صديقين لا يتفارقان.

أراد جلجامش السفر إلى غابة الأرز من أجل أن يخلد أسمه هناك في سجل الأبطال، ويتمكن من الوحش"خمبابا" المرعب، ورغم تحذيرات أنكيدو إلا أن جلجامش استمر في الرحلة، وعند وصوله إلى غابة الأرز قتلا حارسها وراحا يتجولان في الغابة، حتى سمعا صوت زئير الوحش، وضجة قطعه للأشجار وهو يستشيط غضبا، فاستنجد الصديقان بإله الشمس الذي سخر الرياح العاتية التي أوهنت الوحش"**خمبابا**"، حتى استسلم وراح يتضرع لهما، لكن أنكيدو قتله، وعاد الصديقان ليحتفلا في مدينة الوركاء، فرأت **عشتار** "ألهة الطبيعة وخصب الأرض والحب"جلجامش في أجمل هيئة له، وأعجبت به وطلبته للزواج، لكنه سخر منها وراح يعدد لها عشاقها الذين خانتهم، وهذا ما أثار عضبها فطلبت من **آنو** رب السماء-والدها- أن يمنحها ثورا أسطوريا يقتل جلجامش وأهل الوركاء، وكان أن قتل أنكيدو الثور الأسطوري دفاعا عن صديقه.

وفي الرقيم السابع تبدأ مرحلة أخر من القصة وهي مرض أنكيدو وحزنه والأحلام المزعجة التي كانت تلاحقه إلى أن مات، وترك حزنا كبيرا في قلب صاحبه جلجامش الذي امتنع عن تسليم صديقه للقبر ستة أيام وسبع ليالي حتى غطى الدود وجهه. وبدأ هاجس الموت يؤرق جلجامش، لهذا بدأ البحث عن حل لهذا الشبح الذي خطف صديقه، وهنا تبدأ رحلة البحث عن سر الخلود، حيث قصد رجل الطوفان ولاقى في رحلته الكثير من الصعوبات والمخاطر، وكل من كان يلقاه يخبره أن الموت لا خلاص منه، وأن لا فائدة من ذهابه إلى الرجل الخالد"**أوتنابشتم**"، لكن جلجامش لم يقتنع ولا استسلم، وواصل طريقه حتى عبر بحر الموت والتقى برجل الطوفان، الذي أنقد البشرية فكافأته الآلهة بالشباب الدائم والخلود، أخضعه الرجل لامتحان فشل فيه جلجامش، لكن زوجة الرجل أشفقت على جلجامش وباحت له بسر الخلود،

-

وهو نبات شوكي في عمق البحر له فعل عجيب في إبقاء الشباب الدائم ومنع الموت، وخاض جلجامش التجربة وحصل على النبات، وفي طريق عودته إلى مدينة الوركاء نزل ببئر ليشرب فشمت إحدى الأفاعي رائحة النبتة العطرية وأكلتها، تأكد جلجامش من استحالة الخلود في عالم البشر فهو من نصيب الآلهة، عاد إلى مدينته بناء سورا حولها وقام بالكثير من الأعمال التي كان لها أن خلدت ذكره.

في الملحمة الكثير من القضايا الوجودية كحتمية القدر والموت، وتخليد لمعاني الصداقة والوفاء والرجولة:«**الكفاح الشديد لبطل الملحمة من جل مصيره المحتوم وعن طريق معرفة سر الخلود من رجل الطوفان، ينتهي بالفشل في نهاية الأمر**»[1]، وهي تجربة إنسانية عميق تتمظهر عبر أسلوب أدبي رفيع ، تنتهي إلى نتيجة مفاده أن الإنسان مصيره الموت وأن باستطاعته تخليد ذكر بمأثر وبطولاته وأعماله.

4-المهابهاراتا Mahabharata:

ومعناها الملك العظيم، ملحمة هندية تظم أهم أساطير ومعتقدات وتواريخ الهند القديم، ويعدها الهنود السفر الخامس من أسفار الحكمة، ومصدر من مصادر الحكمة والتصوف والدينة الهندوسية والبوذية، يبلغ عدد أبياتها 100الف بيت تنسب إلى ما يسمى بفياسا أي المنظم وهم حوالي 100شاعر، تروي قصة صراع طويل بين فرعين من فروع عائلة بهاراتا وهم أبناء العمومة" الباندافا-5اخوة-و الموارفا-100أخ- من أجل عرش المملكةن دارت الأحداث في حدود الألف الثانية قبل الميلاد، وقد نفي الباندافاس بعد صراع مرير حيث أقاموا في بلاط الملك"دوروبادا" والتقوا بالباندافاس كرشنا واعترفوا به كتجسيد لمعبودهم فنشنون الذي دعمهم في معاركهم الطاحنة.

واستمرت المعارك بعد نهاية مدة النفي بين أبناء العمومة 200 عام بالقرب من مدينة دلهي، إلى أن اقتسموا المملكة، وأصبح يودهشترا ملكا إلى أن قرر التنازل عن العرش والصعود إلى السماء رفقة أخوته الباندافاس وزوجته وكلبهم المعبود دراما-اله الواجب والقانون الأخلاقي في الأساطير الهندية- واتحدوا في السماء.

تتخلل الملحمة قصص كثيرة أسطورية وشعبية كقصة راما وقصة شاكونت لا، والكثير من التعاليم الدينية والفلسفية ، زيادة على أنها تقدم صورة وافية عن الهند القديم من حيث نظام المجتمع وطبقاته وعلاقاتهم ببعض من جند ورهبان ونساء وسبايا...الخ، زيادة على موضوعها الأساسي الذي هو الواجب الأخلاقي والسلوك القويم، ويبقي لها الأثر القوي ليومنا هذا في التفكير الهندوسي.